الكتابة على الأرض

[مقتبسة من أسطورة قديمة]

للكاتبة السويدية سلمى لاجيرلوف

بقلم الأستاذ صديق شيبوب

كان قد صدر الحكم على المرأة الزانية ، وكانت تعرف أنها سوف تعدم ... إن الذين ألقوا القبض عليها ، مغلبسة بجريمتها ، قادوها إلى الهيكل أمام الكهنة ورجال الشريعة ، فأصدروا حكمهم عليها وفاقاً لشريعة موسى التى تقضى بإعدام الزانية رجماً بالحجارة ...

كانت هذه الزانية هزيلة الجسم ، وكانت ثيابها ممزقة ووجهها دامياً من أثر الضرب الذى انهال عليها ... وكانت لفرط ذعرها شبه ميتة ، وقد ظلت ساكنة صامتة أمام قضاتها ... فلم تحاول أن تدافع عن نفسها ، ولم تقاوم قبل ذلك الرجال الذين ألقوا القبض عليها وقادوها إلى الهيكل ، أولئك الرجال الذين يدفعون بها الآن إلى المكان المعد لتنفيذ الحكم الصادر عليها ...

على أنها بالرغم من مظاهر الضنك البادية عليها ، كانت روحها مليئة بغضاً ، ودمها يفور فى عروقها غضباً ... وكان واضحاً جلياً أنها لا تشعر بوخز ضميرها وتقريعه ... فقد كان زوجها شديد القسوة فى معاملتها ، وكان يضربها ضرباً مبرحاً ، ويحتم عليها أن تشتغل وتكد من غير أن يوجه إليها كلمة مؤاساة طيبة ... لذلك لم تكن تعتقد أنها مدينة له بالأمانة والوفاء ... وكانت نساء الحى يعرفن ما تقاسيه ويعجبن لصبرها على تحمل الضيم ، وطاعتها لأوامر زوجها ، وأنها لا تقابل الشر بالشر ...

وشعرت فجأة بالمصير الذى ينتظرها ... فصرخت صرخة مدوية ، وتراجعت إلى الوراء ...

سمعت منذ نعومة أظفارها أحاديث كان الناس يتناقلونها همساً فيقولون : إنه يوجد فى هيكل أورشليم مكان مخيف لا يقصده الناس إلا مرغمين ؛ وكان هذا الموضع ساحة ضيقة فى شكل مربع ذات أرض سوداء تحيط بها جدران عالية مشيدة بحجارة ضخمة ... لم يكن فى تلك الساحة مذبح ، أو أقفاص حمام ، أو مكاتب صيارف ... لم يكن فيها غير كومة كبيرة من أحجار عادية كالتى توجد فى الحقول ، حجارة رمادية اللون بحجم رأس الإنسان ... ولم تكن المرأة قد رأت هذا المكان قبل ذلك ، ولكنها عند ما نظرت من فجوة باب مرتفع ، ورأت الحجارة الرمادية اللون ، فهمت لساعتها أى مكان يحتويها ...

كانت تشعر برعدة وخوف كلما سمعت الناس يتحدثون عن الساحة الخالية إلا من كومة من الحجارة حيث تكفر النساء الزانيات عن جرمهن وفقاً لشريعة موسى ، وقد ظهر لها هذا المكان أشد شؤماً من جهنم ، وها هى ذى تقاد اليوم إليه

ماذا ينفعها الصراخ والمقاومة ؟ لقد دفعها الرجال بعنف فدخلت الباب وبعد ذلك لم يهتموا بأن تظل واقفة ، فتركوها ترتمى على الأرض فجرت

تعريف

نعت أنباء البرق فى يوم ١٦ مارس الماضي الكاتبة الأسوجية الفاضلة الصيت « سلمى لاجيرلوف » Selma Lagerlöf بعد أن أربت على الثمانين من عمرها وكانت قد ولدت سنة ١٨٥٩ وابتدأت حياتها العملية بالتعليم ثم زاولت الكتابة والتأليف فلم تلبث أن ذاعت شهرتها وعلا كعبها فى عالم الأدب . وكان أول كتبها الذى لفت إليها الأنظار قصة « ساجادى جوسته بيرلنج » أو كما يسمونها بالفرنسية La légende de Gösta Berling التى ظهرت سنة ١٨٩١ . وقد ساهمت فى حركة التجديد التى ظهرت فى أدب بلادها وهى حركة كانت ترمى إلى انتهاج الطريقة الرومانسية الابتداعية فى الأدب الأسوجى وكانت تعالج فى قصصها أساطير قديمة بخيال واسع قوى ونزعة إنسانية محضة .

وقد امتازت ببعثها على الساكين وفهمها العميق للنفس البشرية ، فمزجت فى مؤلفاتها بين هذه العواطف الانسانية ، وذلك الخيال الواسع فجاءت كتبها فى متناول كل واحد على اختلاف العمر والفهم . وهذا ما حمل الكثيرين من النقاد على تشبيهها بالقصصى الدانمركي الكبير « أندرسن » Andersen وجعلها ذات شهرة عالمية ، بل دفعها فى مصاف الكتاب القلائل الذين عرفوا بعبقريتهم الانسانية العالمية الشاملة . وقد فازت بجائزة « نوبل » الادبية سنة ١٩٠٩

وقد شاءت الصدف أن تنمى هذه الكاتبة الكبيرة بينما كنت أطالع آخر ما ترجم إلى الفرنسية من مؤلفاتها وهي مجموعة من الأقاصيص بعنوان « خاتم الصياد » L'anneau du pêcheur فرأيت أن أنقل منها أقصوصة بعنوان « الكتابة على الأرض » L'inscription sur le sol تناولت فيها الكاتبة الكبيرة حكاية الزانية التى جيء بها إلى المسيح وقد حكم عليها بالموت رجما فأجابهم بكلمته المشهورة : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر » . ثم انحنى إلى الأرض يكتب بأصبعه عليها ... إلى آخر ما روى فى الاصحاح الثامن من انجيل يوحنا .

نفسها جرا إلى أحد أركان الساحة حيث قبعت فى مكانها مذعورة مشدوهة ، وعيناها لا تفارقان كومة الحجارة لأنها مصدر روعها وخوفها

على أنه بالرغم من وجلها ظل البغض والغضب يتطرمان فى نفسها ويحولان دون شعورها بحقيقة جرمها . ولو أنها استطاعت الكلام لما حاولت أن تنكر فعلتها أو تستدر عطف أحد عليها . كلا ، بل لصاحت فى وجه متهميها بأنهم أخطأوا نحوها أكثر منها نحوهم ، وأن إله إسرائيل سوف يعاقبهم إذا انتزعوا منها الحياة التى تنبض فيها

ولكنها فى تلك الساعة لم تكن تستطيع التفكير إلا فى كومة الحجارة القائمة أمامها ، فلذلك لم تدر من أين جاء الرجل الذى وقف فجأة بينها وبين تلك الكومة المشؤومة ، أكان فى موضعه قبل وصولها أم هو من أولئك الفضوليين الذين تبعوها إلى فناء الهيكل ؟

لماذا يقف بينها وبين كومة الحجارة ؟ ماذا يريد ؟ أتراه الذى يبدأ بتنفيذ الحكم ؟

كان الرجل مديد القامة يرتدى ثوباً أسود ، ويتدثر بدثار أسود . وكان شعره ينحدر على كتفيه مضفراً غدائر متساوية ، وكان وجهه جميلاً ، ولكنه كان يشيع حول عينيه وفمه تجاعيد خدّدها الألم ، وكانت تفكر فى نفسها : « إنى أعرف حق المعرفة أنى لم أسىء إليك من قبل يا هذا ، فلماذا تحكم على وتتالنى بقضائك ؟ »

لم يخطر ببالها لحظة واحدة أن حضوره لهذا المكان قد يكون لإنقاذها والأخذ بيدها . على أنها أحست بتغيير فجائى عند ما رأته . إن وجود هذا الرجل الغريب قد خفف الضيق الذى كان يلازم صدرها وحسن تنفسها الهواء ، فلم يعد هذا التنفس يشبه حشرجة الموت

أما الرجال الآخرون ، أما أبوها وزوجها وأخوها وجيرانها الذين قادوها إلى هذا المكان والذين كانوا يتأهبون لقتلها فقد تمهلوا إلى حين دون هجومهم الوحشى عليها ، وإذا بعض الرجال من الذين قضوا النهار فى الهيكل يصلون ويجادلون فى كتب الدين قد دخلوا فناء الهيكل المظلم وأمر أحدهم بوقف تنفيذ الحكم

فسمعت الزانية همساً من ورائها ، وخيل لها أنها تسمع من يقول : « سوف يمتحنون هذا الرجل ، إنه النبى الناصرى ، لنفهم هذه الفرصة السانحة ونرَ هل يجرؤ على معارضة شريعة موسى ! »

وعندئذ تقدم من الغريب ذى الثياب السوداء اثنان من رجال الشريعة ، وكانا شيخين ذوى لحية فضية ، يتدثر كل واحد منهما بدثار صنعت حواشيه من الفرو ، فانحنيا أمامه ، وقال له أحدهما : « يا معلم ، لقد قبض على هذه المرأة متلبسة بجريمة الزنا ، وقد قضت شريعة موسى على أمثالها بالرجم بالحجارة ، أما أنت فماذا تقول ؟ »

رفع الغريب الذى لقبوه بالمعلم أجفانه الثقيلة ونظر إلى محدثيه . ثم أجال نظره فى أب المحكوم عليها وزوجها وأخيها ، والرجال الذين رافقوهم إلى الهيكل ، ورجال الشريعة والفريسيين وكل خدمة الهيكل

وبعد أن طاف بنظره محدقاً فى وجه كل واحد منهم انحنى على الأرض وأخذ يكتب بأصبعه عليها ، كأنه لم يجد من المناسب أن يرد عليهم . على أنه عند إلحاح الشيخين اللذين تقدما إليه نهض وقال لهم :

« من لم يرتكب منكم خطيئة فليرمها بأول حجر »

فرد عليه الرجال بضحكة ساخرة ، ماذا يريد من قوله هذا ؟ إذا كان الأمر كذلك فلن يلقى مجرم عقابه الحق

تصاعدت من صدر المرأة أنة ضعيفة ، وكانت قبل ذلك قد أحست بالرغم منها بالأمل فى أن هذا الغريب سيقول كلمة تنقذها من الموت . أما الآن فقد فهمت أن كل أمل ضائع مفقود ، فأحنت رأسها وقبعت فى مكانها معلوية الجسم فى انتظار سيل الحجارة الذى سيهوى عليها ، بينما كان الرجال الذين سينفذون الحكم فيها قد أخذوا ينزعون عنهم ما يتدثرون به ويشمرون عن سواعدهم . أما الغريب فظل فى مكانه وانحنى من جديد ليكتب شيئاً على الأرض السوداء

كان أول من تقدم من كومة الحجارة أبو المرأة الزانية ، لأنه رب الأسرة وأول من أصيب بعار جريمتها فمن حقه أن يبدأ . فانحنى ليلتقط حجراً ، وفى هذه اللحظة وقع نظره على الكتابة المخطوطة على الأرض وقرأ فيها مكتوباً ، لا بالحروف بل بطريقة واضحة مفهومة ، قصة إثم هائل ارتكبه منذ سنوات خلت ، وهو لا يزال إلى اليوم يحرص على إخفائه

فتراجع الأب مذعوراً مرتاعاً عند رؤيته ذلك وجرى نحو الباب هارباً من غير أن يعنى بأخذ دثاره الذى كان قد انتزعه من قبل

فأسرع ابنه ليقوم مقام والده ويغفر سلوكه الشائن ، وقد ظن أن سبب هذا الهرب ضعف الشيخ وتخاذله أمام ابنته ، ولكنه عند ما انحنى بدوره ليلتقط حجراً ويرمى به أخته التى جلبت عليه العار وقع نظره على ما كتب على الأرض فرأى مخطوطاً ، لا بحروف بل بطريقة واضحة مفهومة ، قصة سرقة دنسة ارتكبها فى زق شبابه ، وهى لو عرفت كان من جرائها فقدانه حقوقه كواطن إسرائيلى

فذعر وحاول أن يمحو برجليه ما رآه مكتوباً على الأرض ، ولكن الكتابة ظلت جلية تشع بلمعان لا سبيل إلى إطفائه . وعندئذ فر ممعناً فى هربه مقصياً فى عنف كل من حاول أن يسد عليه طريقه

تحركت المرأة الزانية من الركن الذى قبعت فيه ، وكان شعرها ينحدر على جبينها فأزاحته عنه وأخذت تسوى ثيابها المهلهلة

وعندئذ تقدم زوجها ، وكان قد غاظه ما رآه من سلوك أبيها وأخيها الشائن ، فتأهب ليلتقط حجراً بينما كان كل جسمه يصرخ بالثأر للشرف المهان : لتقتل هذه المرأة التى ألبسته العار . يا لها من لذة يشعر بها فى ثأره هذا ، ولكنه بينما كان ينحنى نحو الأرض خيل إليه أن بعض كلمات أو إشارات سطرت عليها أخذت تلتهب فجأة ، وكانت هذه الكلمات تزيح الستار عن مؤامرة دبرت ضد الحاكم الرومانى ، وكان الرجل مشتركا فيها ، وهى لو فضح أمرها لكان الشنق العقاب الذى ينتظره

فانتصب واقفاً ، وأوحت له خبرته بالحياة أن يتظاهر بالشفقة فغمغم كلمات معناها أنه لا يريد أن يقيم نفسه حكما . ثم غادر المكان

ورأى رجلا الشريعة هذا التخاذل فاندهشا وخافا . ثم تقدما من الكومة لا ليلتقطا حجراً بل لينظرا ما خطه العلم على الأرض بعد أن رأيا ما كان لهذه الكتابة من أثر عظيم

فرأى أحدهما سطراً أنه فى أحد الأيام اغتصب جزءاً من حقل جاره إذ نقل الحد الفاصل بينهما ، ورأى الثانى أنه استولى على جزء كبير من أموال قاصر كان وصياً عليها

فانحنى الرجلان عندئذ أمام العلم متظاهرين بالشفقة والحنان وانصرفا بوقار

وبعد أن خرج الرجلان اللذان كانا بين قضاتها ، انتصبت الزانية على ركبتيها لأن الشجاعة أخذت تعاودها . إنها لم تفهم جلياً ما جرى ، ولكنها أحست بأنها ستنجو ، أو أنها قد نجت بالفعل . فشعرت بلذة الحياة تفيض على نفسها غبطة وسعادة ، وتغشت فى جسمها رعشة عجيبة فأحست بميل إلى الرقص

ولكن الخطر لم يكن قد زال تماماً لأن بعض الحاضرين تهافتوا لينفذوا فيها الحكم . على أنهم لم يلبثوا أن تراجعوا الواحد تلو الآخر بعد أن ألقوا نظرة على الأرض ، وكانوا ، بدلاً من أن يلتقطوا الحجارة ، يولون الأدبار وقد علت وجوههم صفرة الوجل وسرت فى أجسامهم رعدته ، ثم يمعنون فى الهرب ، وقد حولوا أنظارهم وخفضوا رؤوسهم

وعند ما لم يبق فى فناء الهيكل أحد انتصبت الزانية واقفة وقد استعادت عيناها لمعانهما كما استردت وجنتاها الشاحبتان لونهما الوردى ... وظلت حيناً جامدة لا تحرك ساكناً . وكان فرحها بالحياة يختلط بلذة رؤيتها أعداءها ينصرفون مذعورين ذليلين . فانتشت بحلاوة الانتقام وأحست برغبة ملحة فى الرقص فى هذا المكان المرذول وأمام الحجارة التى كانت ستنقض عليها فتسحقها . فاستقامت فى وقفة المستعدة للرقص ، وكأنما فتنها الموقف فطفقت تضحك

ونظر إليها العلم المجهول سائلاً : « أين قضاتك ؟ ألم يحكم عليك أحد ؟ »

فأجابته : « لم يحكم أحد يا سيد »

وبينما كانت ترد عليه كانت تقول فى نفسها إنها لا تستطيع كبح جماح سرورها الذى كان يدفع بها إلى الرقص

ولكن العلم ظل ينظر إليها

كان يرى تلك الغبطة الحيوانية الجامحة التى استولت عليها ، ويلاحظ أنها لا تشعر بأى ندم ، وأن نفسها مليئة بالبغض ، عطشى إلى الانتقام وإلى إشباع الشهوات الجسدية

على أنها فهمت أنه كان يرى ما بنفسها فغارقتها رغبتها فى الرقص وأخذت تحس بالخوف من الرجل الذى أنقذ حياتها .